آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية مكتبية.

تصدر عن إدارة البحث العلمي والنشاط الثقافي بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث.

السنة الثانية - العدد السادس ربيع الثاني ١٤١٥ هـ / سبتمبر (أيلول) ١٩٩٤

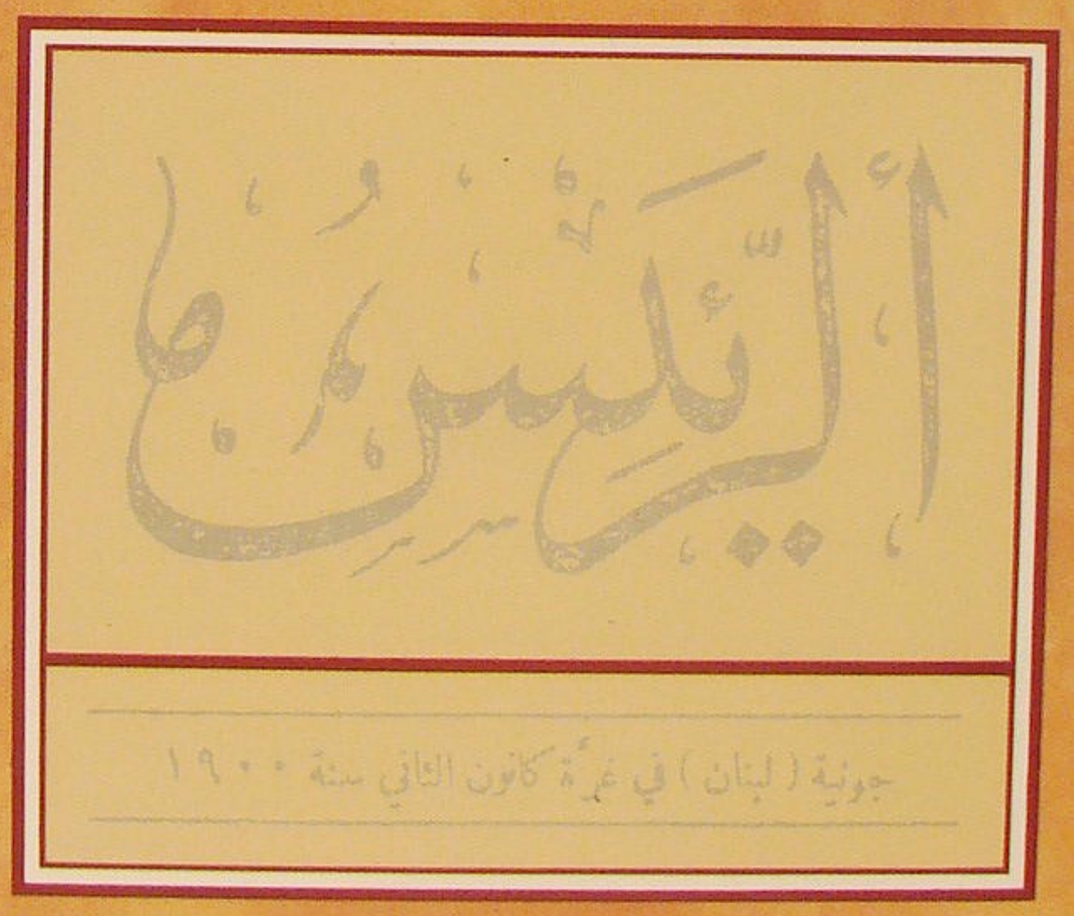

صورة غلاف مجلة الرئيس اللبنانية

ملامح النظرية التراثية لعلم المصطلح

الأستاذ عباس عبد الحليم عباس - جدة

مازالت قضية المصطلح تشغل المجامع اللغوية المعاصرة، فضلاً عما تخصصه الجامعات أو المعاهد أو الهيئات المختصة من ندوات ومؤتمرات(١) لاتنتهي، في محاولة للوصول إلى حلول عملية وجادة لإشكالية المصطلح في مختلف الميادين.

إذا كان هذا هو حال «المصطلحية» اليوم، فما معالم هذه القضية في تراثنا بزخمه وامتداده؟

لا يعقل بالطبع أن نسقط أدواتنا الثقافية والمعرفية بأسمائها وألقابها المعاصرة على المادة التراثية التي نملك، ولا أن نزنها أو نقيسها بما لم يتوافر في عصر الأجداد من تقنيات وأساليب علمية في البحث والدرس، فمثلما نحيا اليوم في عصرنا و حضارتنا عاش القدماء في عصرهم وحضارتهم، فكانت لهم خصوصيتهم. وأبرز ملامح تلك الخصوصية ما نلاحظه من فردية الجهود العلمية في معظم المجالات، حتى ليكاد الباحث غير المتأمل أن يصدر حكماً بالتشويش أو عدم التنسيق أو الاضطراب على تلك الجهود. غير أن المتعمق من الباحثين يستطيع أن يستقصي المسائل في منابعها ويتتبعها في قنواتها لامّاً أشتاتها ومتفرقاتها ليخرج بصورة واضحة وشاملة

لكل قضية .

ما سبق، هو بالتحديد ما دعاني لإطلاق كلمة "ملامح"على النظرية التراثية لما يعرف اليوم بعلم المصطلح (Terminology)، وعليّ بالتالي أن ألملم هذه الملامح لرؤية مدى طاقتها، وسعتها لتشكيل «نظرية تراثية خاصة بعلم المصطلح».

لم يكن الإسلام جذوة إشعاع ديني لهؤلاء القوم القاطنين في بطن الصحراء فحسب، وإنما شكل مصدراً عظيماً لإشعاع حضاري شامل، ويمكنني القول فيما يتعلق بموضوعنا: إنّه مع بدء ظهور الدراسات الإسلامية، أعني تلك التي شُغلت بالقرآن الكريم والحديث الشريف، والفقه والسيرة النبوية بدأت بوادر «المصطلحية» تأخذ مكانها في ركب الحضارة ويكون لها موقع في تدوين العلوم. لقد بدأ الناس يتعاملون مع اللغة بمنطق جديد، فبعد أن كانوا يعرفون الحقيقة اللغوية للألفاظ أخذوا يتعاملون بحقيقة أخرى إلى جانب هذه، وأعني الحقيقة الشرعية. ومن ثم أصبح لدارس الإعجاز مصطلحه، وكذلك دارس التفسير، والسيرة والمغازي والتاريخ وغير ذلك من العلوم النقلية التي شكّلت اللّبنات الأساسية في بنية الثقافة العربية الإسلامية. وازدادت مسألة المصطلحات أو الحدود والتعريفات أهمية بانتشار العلوم العقلية، وربما كان المتكلمون من أوائل من اعتنى بالمصطلح، الأمر الذي لفت انتباه الجاحظ (– ٢٥٥ هـ)(٢). وتستمر هذه الأهمية للمصطلح والمسألة المصطلحية لتصل ذروتها مع دخول العلوم اليونانية والهندية والفارسية من فلسفة ومنطق ورياضيات وطبيعيات وإلهيّات. مما حدا علماءنا الأوائل أن يحاوروا لغتهم ويسبروا أغوارها باذلين جهودهم في مجالات الوضع والقياس والاشتقاق والنحت والترجمة والتوليد والتعريب والإفادة من التعبير المجازي إلى أبعد الحدود، من أجل إبداع حدود العلوم ومصطلحاتها ورسومها وتعريفاتها، وحلّ الإشكالية المصطلحية التي عرفوها وعانوها، وربما كانت معرفتهم تلك لا تختلف عن معرفتنا، غير أنهم في عمق حسهم اللغوي كانوا أكثر ثقة بلغتهم، وأشد إيماناً بطاقتها وحيويتها.

استطاع العرب المسلمون مواكبة التطور الحضاري بمستوييه الروحي والمادي بفهم حضاري متفتح ومعاصر آنذاك، لا يفقدهم هويتهم وتفردهم كما لا يتركهم منعزلين عن حضارات العالم الأخرى التي بدأت تمتزج طبيعياً بالفكر العربي الإسلامي حينما كانت للمسلمين دولتهم التي أخذت تمدّ أجنحتها أينما توجهت. فاستقبلوا العلوم المختلفة إنسانية وأساسية، وقننوا قوانينها، ورسموا اصطلاحاتها، مدركين أهمية ما يقومون به ومعتمدين اعتماداً أساسياً على معرفتهم الواسعة بقوانين لغتهم وأنظمتها النحوية والصرفية، والمعجمية، والصوتية.

ولوقامت دراسة مقارنة – وليس هنا مجال الحديث عنها – بين ما اشترطه القدماء من شروط وقيود في الحدّ أو الرسم وما تشترطه المجامع اللغوية والهيئات المختصة بالمصطلح اليوم لوجدنا التقاءً كبيراً في هذه الناحية، وفي هذا السياق. أذكر ما لاحظه الدكتور أحمد مطلوب حين تحدث عن وسائل القدماء في وضع المصطلح، فقال: إنهم اعتمدوا لذلك عدداً من الوسائل:

الأولى : اختراع أسماء لما لم يكن معروفاً،

كما فعل النحويون والعروضيون والمتكلمون وغيرهم.

الثانية: إطلاق الألفاظ القديمة للدلالة على المعاني الجديدة ،على سبيل التشبيه والمجاز، كما في الأسماء الشرعية والدينية وغيرها مما استجد بعد الإسلام من علوم وفنون...

الثالثة: التعريب : وهو نقل الألفاظ الأعجمية إلى العربية بإحدى الوسائل المعروفة عند النحاة واللغويين.

وهذه الثلاث من الوسائل التي لا يزال العاملون في اللغة، والعلم والفن يلجؤون إليها عند وضع المصطلحات العلمية(٣).

وبهذا نجح القدماء في إثراء اللغة بمصطلحات متنوعة، تخدم أغراضهم في مختلف الميادين، فدارس البلاغة و النقد الأدبي على سبيل المثال يلاحظ وجود مئات من المصطلحات البلاغية والنقدية التي تعرض على كل من يتصدى لهذين الفنين أن يفهم مصطلحاتها قبل كل شيء. وثمة ملاحظة أظهرت لي أن هذا الفيض والزخم الكمي من المصطلحات سبَّب للمحدثين إشكالية منهجية في دراسة المصطلح النقدي والبلاغي في التراث، وهذه نفسها دفعت الباحثين للحديث عن مشكلة المنهج في دراسة مصطلح النقد العربي القديم(٤). أي كيف ندرس هذه المصطلحات؟ وكيف نستفيد منها لتوظيفها في دراسة البلاغة والنقد المعاصرين؟ وأعتقد أننا لو استطعنا أن نصل إلى منهج علمي سليم في دراسة المصطلح العربي القديم، لأمكننا بذلك أن نكشف أسس النظرية المصطلحية وفلسفتها عند النقاد والبلاغيين العرب القدماء. والشيء نفسه يقال عن بقية العلوم ومصطلحاتها.

ففي تراثنا العربي القديم ثمة تنويرات رائعة تكشف لنا عن وعي دقيق لمسألة المصطلح، تفيدنا بلا شك في عصرنا هذا المتراكم الثقافة، المتفجر المعرفة. فعبدالقاهر الجرجاني (- ٤٧١ هـ)، على سبيل المثال، يمس في إشارة ذكية جانباً بالغ الخطورة في مسألة «المصطلحية»، ألا وهو «عالمية المصطلح» وذلك عندما عقد فصلاً في حدّي الحقيقة والمجاز فقال: «فمن حق الحدّ أن يكون بحيث يجري في جميع الألفاظ الدّالة. ونظير هذا نظير أن تضع حداً للاسم والصفة في أنك تضعه بحيث لو اعتبرت به لغة غير لغة العرب وجدته يجري فيها جريانه في العربية، لأنك تحد من جهة لا اختصاص لها بلغة دون لغة. ألا ترى أن حدَّك الخبر بأنه ما احتمل الصدق والكذب مما لا يخصُّ لساناً دون لسان. ونظائر ذلك كثيرة وهو أحد ما غفل الناس عنه ودخل عليهم اللُّبس فيه حتى ظنوا أنه ليس لهذا العلم قوانين عقلية، وأن مسائله كلها مشبهة باللغة في كونها اصطلاحاًيتوهم عليها النقل والتبديل. ولقد فحُش غلطهم فيه، وليس هذا موضع القول في ذلك»(٥).

وباقترابنا أكثر من نظرية المصطلح في تراثنا نجد أن نصوص الفلاسفة المسلمين هي الأكثر إغراء في هذا المجال. فجابر بن حيان (- ٢٠٠ هـ) يقدم لرسالته «الحدود» بتوطئة في الحدّ يقول فيها: «واعلم أنَّ الغرض بالحدّ هو الإحاطة بجوهر المحدود على الحقيقة حتى لا يخرج منه ماهو فيه، ولا يدخل فيه ماليس منه»(٦). أما صاحب «الحدود والرسوم»، أعني فيلسوف العرب الكندي (- ٢٥٠ هـ) فقد أدرك أن «الإحاطة

بحدود الأشياء ورسومها صعبة المسالك»(٧)، وفي ذلك مالا يخفى من دلالة على إشكالية مسألة الحدّ «المصطلح»، الأمر الذي جعل بعضهم يتحرج من الخوض فيها. ومثل الكندي في ذلك الشيخ الرئيس ابن سينا (– ٤٢٨ هـ) الذي سعى إلى وضع حدّ للحدّ(٨) ليضبط عملية التحديد والتعريف من أساسها، كما قام ببيان الغرض من صياغة الحدود والمصطلحات، وشروط تلك الصياغة وكيفيتها اللغوية، وغير ذلك مما يدل على المساهمة الفعالة فيما يسمى اليوم بـ «علم المصطلح». ومساهمة الغزالي (– ٥٠٥ هـ) الذي يبدأ رسالته «الحدود» بفصل في بيان الحاجة إلى الحد(٩)، يمكن ضمّها إلى تلك الجهود لما أبداه من آراء حول مادة الحدِّ وصورته، ومتى يكون ناقصاً أو تاماً، وكيف يمكن وضعه، وما أسباب تصوره، وغير ذلك مما له علاقة مباشرة بالتنظير لمسألة المصطلح.

وأخيراً لا أزعم أنني أحطت بالكثير من أطراف هذه القضية، فما هي إلا إشارات مكثفة، آمل أن تجد العناية والاهتمام لتوسيعها واستكمال بقية جوانبها، علّنا نجد في تراثنا ما يفيدنا في عصرنا هذا، ولا أشك في إمكانية إفادة مجامعنا اللغوية من تلك الجهود، ولا سيما إذا قُيِّض لها من يستقصيها ويطورها، وبذلك نستمد المعاصرة من أصالتنا، فنمتلك هويتنا، ونظهر بشخصيتنا.

□ □ □

الحواشي :

١ – منها على سبيل المثال :
– ندوة إشكالية المنهج والمصطلح النقدي، الرباط ٢٥ – ٢٦ يناير/ كانون الثاني ١٩٨٥. انظر «اللسان العربي» ع ٤/١٩٨٥.
– ندوة المصطلح النقدي و علاقته بمختلف العلوم . انظر "مجلة كلية الآداب " جامعة سيدي محمد بن عبدالله بفلس ٤، ,١٩٨٨
٢ – «البيان والتبيين» ١/ ١٣٩.
٣ – مطلوب، أحمد، بحوث لغوية، ١٩٨٧، ١٦٨.
٤ – انظر مقالة بهذا العنوان للشاهد البوشيخي، «مجلة الآداب»، جامعة سيدي محمد بن عبدالله، بفاس ع، ١٩٨٨.
٥ – أسرار البلاغة، ٣٠٣، بيروت: دار المعرفة ١٩٨٢.
٦ – الأعسم، عبدالأمير، المصطلح الفلسفي عند العرب بغداد .مكتبة الفكر العربي ١٩٨٣. «رسالة الحدود لجابر بن حيان» ١٦٥.
٧ – «رسالة الحدود والرسوم للكندي» ضمن المرجع السابق ١٨٩.
٨ – ابن سينا، الإشارات والتنبيهات، «حدّ الحدّ».
٩ – «رسالة الحدود للغزالي» ضمن كتاب المصطلح الفلسفة عند العرب ,٢٦٦